تفسير سورةُ الفرقان

من آية (51) إلى آية (59)

اللقاء الثامن

المعنى الإجمالي من آية (44) إلى آية (50):

يَذكُرُ الله تعالى بعضَ مظاهرِ قدرتِه، ويمتَنُّ على عبادِه ببيانِ بعضِ النِّعمِ التي أنعَم بها عليهم، فيقول: ألَمْ ترَ -يا محمَّدُ- إلى كيفيَّةِ بسْطِ رَبِّك الظِّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ دائمًا لا يتحرَّكُ، ثمَّ جعَلَ الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ، ثمَّ نقَصَ ذلك الظِّلَّ.

واللهُ سُبحانَه الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ سِترًا يَستُرُكم بظَلامِه، وجعَلَ النَّومَ قاطعًا لحركتِكم لِتَستريحوا، وجعل النَّهارَ حياةً تنتَشِرونَ فيه لطلَبِ الأرزاقِ.

واللهُ وحْدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ تبَشِّرُ النَّاسَ بنُزولِ المطَرِ، وأنزَل مِن السَّماءِ ماءَ المطَرِ الطَّهورَ؛ ليُحييَ به أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها، ويَسقيَ به ما خلَقَه مِن الأنعامِ والنَّاسِ.

ولقد قسَّم سُبحانَه ماءَ المطَرِ بيْنَ النَّاسِ للتذكُّرِ والاعتِبارِ، فأبى أكثَرُ النَّاسِ إلَّا الكُفرَ باللهِ والجُحودَ.

(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ﴿51﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: لَمَّا عَلِمَ تعالى ما كابَدَه الرَّسولُ مِن أذَى قَومِه؛ أعْلَمَه أنَّه تعالى لو أراد لَبَعثَ في كلِّ قريةٍ نذيرًا فيُخَفِّفُ عنك الأمرَ، ولكنَّه أعظَمَ أجرَك وأجَلَّك؛ إذْ جعَلَ إنذارَك عامًّا للنَّاسِ كلِّهم، وخَصَّك بذلك؛ لِيَكثُرَ ثوابُك؛ لأنَّه على كثرةِ المجاهَدةِ يكونُ الثَّوابُ، ولِيَجمعَ لك حَسَناتِ مَن آمَنَ بك؛ إذْ أنت مُؤَسِّسُها.

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا) أي: ولو شِئْنا لجعَلْنا في كُلِّ مدينةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويَدْعوهم إليه، ولكِنَّنا خَصَصْناك -يا محمَّدُ- بالرِّسالةِ إلى جميعِ النَّاسِ. موسوعة التفسير

وهذا يدل على فضل الدعوة إلى الله، وأنها وظيفة رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وكفى بذلك فضلاً وفخراً وشرفاً، والداعي إلى الله له من الأجر مثل أجر من تبعه إلى يوم القيامة.

كما قال تعالى: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام: 19].

وقال سُبحانَه: وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا [الأنعام: 92].

وقال تبارك وتعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا [الأعراف: 158].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصاريّ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خَمسًا لم يُعطَهنَّ أحَدٌ قَبلي: ... وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً)) متفق عليه.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿52﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا بَيَّنَ سبحانَه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم ما خَصَّصَه به مِن الكرامةِ؛ دعاه إلى مُقابَلةِ ذلك بعدَمِ طاعةِ أهلِ الكُفرِ، والثَّباتِ على جهادِهم بالقُرآنِ

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ) أي: فلا تُطِعِ الكافرينَ -يا محمَّدُ- فيما يَدْعونَك إليه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو في تَركِ شَيءٍ مِمَّا أُرسِلْتَ به. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا [الإنسان: 23، 24].

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) أي: وجاهِدِ الكافرينَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ جِهادًا شَديدًا بكُلِّ طاقتِك بلا فُتورٍ؛ نُصرةً للحَقِّ، وقمعًا للباطِلِ. موسوعة التفسير

فالجهاد الكبير، أو الأكبر، هو جهاد القرآن بتلاوته، وتدبره، وفهمه، والعمل به، والدعوة إليه، والوقوف عند حدوده، والصبر على أحكامه وتحكيمه في قرارات العقول، ومشاعر النفوس، وحركات الجوارح.

يعني جهاد الحجة والبرهان والإقناع، وإعداد العدة لذلك بالعلم والبصيرة والحكمة والمجادلة بالتي هي أحسن.

وقد يكون الجهاد الكبير غير موجه للكافرين على وجه الخصوص، فيعني الجهاد في ميادين الحياة كلها، من الإصلاح والمعروف والبر والإقساط والتقوى والتواصل، وهذه ألفاظ وردت في القرآن الكريم في مقام الحث عليها، والأمر بالتعاون فيها مع الآخرين، والتواصي بها والصبر على تبعاتها.

إن النبي -ﷺ- مكث في مكة ثلاثة عشر سنة لم يحمل فيها السيف، ولم ينزل فيها الأمر بالجهاد بعد، فكان -ﷺ- يجاهد المشركين بالقرآن، والحجة والبيان باللسان، يجاهدهم بالدعوة، والتوجيه، والإرشاد، والتبصير، والوعظ، والتذكير بالقرآن، كما أمره ربه بذلك فقال له: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) [الفرقان : 52]، فهذه الآية العظيمة مكية، نزلت والنبي -ﷺ- في مكة، فعُلم أن المقصود بالجهاد هنا هو جهاد الكلمة والحجة، إلى أن نزل الأمر بالجهاد بالسيف واليد والسنان في المدينة، مع مواصلة الجهاد باللسان والحجة والبيان.

إنّ من أولى الأولويات اليوم أنْ نعطى الأولوية للقرآن الكريم بالدعوة به وبمنهاجه وأسلوبه، فهو كلام الله الذي تقشعر منه الجلود، وتتأثر به جميع المخلوقات، يتأثر به الإنس والجن، ويتأثر به الحيوان والحجر والشجر، نظراً لِما أودعه الله -سبحانه وتعالى- فيه من أسرار وبراهين وحجج دامغة، ويكفي أن الله -سبحانه وتعالى- جعله روحاً، والروح هي سر الحياة في كل شيء، فإذا غابت الروح حلّ الموت محلها،

يقول الإمام الشوكاني –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى: (وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) [الفرقان: 52] : أي: "جاهدهم بالقرآن واتلُ عليهم ما فيه من القوارع والزواجر، والأوامر والنواهي".

إن من أعظم الأعمال الصالحة في هذا العصر عصر المعلومات والتكنولوجيا، أن يعمل الإنسان بالقرآن: بتفسيره للناس ونشره بينهم، وتوضيح أحكامه لهم، وتنزيل فقهه في واقعهم، وتوضيح آياته وحججه لهم، ورد الشبهات التي تثار ضده، فهذا من أعظم الأعمال وأكبر الطاعات، ومن فعل هذا فهو مجاهد في سبيل الله بنص القرآن العظيم كما قال الله: (وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً) [الفرقان: 52].

إن المرء مهما بلغ من الفصاحة، والخطابة، والأساليب، فليعلم علم اليقين أنه لن يؤثر في الناس بكلامه، ولا بخطاباته، ولا بأساليبه الرنانة، وأقواله المؤثرة، مالم يستخدم في خطبه وخطاباته القرآن، ويحرك الناس بآيات القرآن، ويزلزل قلوبهم بمواعظ القرآن، ويوجه عقولهم بحجج القرآن وأدلته.

لقد جعل الله لهذا النوع من الجهاد سهماً من الزكاة لأهميته، وهو سهم "وفي سبيل الله"، ويكون هذا السهم لخدمة هذه المعركة العظيمة معركة الكلمة، يقول النبي –ﷺ–عندما سئل أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ" النسائي، وقال –ﷺ–: "جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ" أبو داود.

فلابد من مواجهة هؤلاء الذين يريدون أن يمسخوا عقل الأمة، ويغيروا هويتها، ويميعوا فكرها، ويضيعوا شبابها ومستقبلها، بهذا النوع من الجهاد جهاد الحجة والبيان عبر القرآن، لأن هؤلاء المنافقين لن ينفع معهم إلا هذا الجهاد، فإذا كان الجهاد بالسيف يكون للكفار الواضحين، فإن الجهاد بالبيان يكون لهؤلاء المنافقين المارقين، الذين يطعنون في الإسلام، ويشككون في صلاحية أحكامه لهذا الزمان، ويزعمون أن شرع الله لا ينفع مع هذا القرن وهذه العصور المتأخرة.

لقد مسخوا عقل الأمة وضميرها وفكرها، وحاضرها ومستقبلها، وأضاعوا شباب الأمة وأوقعوهم في التيه الكبير والفساد العظيم، وأرادوا فصل الإسلام ومنهجه عن الحياة فصلاً تامًا، فتصدت لهم الأيادي المتوضئة، والألسن الذاكرة ولم يتركوهم ليفسدوا المجتمع، ويتطاولوا على المبادئ والأصول والثوابت، وهذا هو الجهاد العظيم، فما هو نصيبنا وحظنا من هذا الجهاد الكبير.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾

﴿53﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن عاشور: هذه الآيةُ عَودٌ إلى الاستِدلالِ على تفرُّدِه تعالى بالخَلقِ **(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ)** أي: واللهُ وحْدَه هو الذي أرسَل البَحرينِ وخلَّاهما، لا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ. موسوعة التفسير

(هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) أي: أحدُهما شَديدُ الحَلاوةِ، والآخَرُ شَديدُ الملوحةِ والمرارةِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ [فاطر: 12].

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا) أي: وجعَلَ اللهُ بقُدرتِه بيْنهما حاجِزًا، ومانِعًا حصينًا يمنَعُهما منعًا شديدًا مِن الامتِزاجِ والاختِلاطِ ببَعضِهما. موسوعة التفسير

والله هو الذي خلط البحرين: العذب السائغ الشراب، والملح الشديد الملوحة، وجعل بينهما حاجزًا يمنع كل واحدٍ منهما من إفساد الآخر، ومانعًا مِن أن يصل أحدهما إلى الآخر. التفسير الميسر

كما قال تعالى: وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا [النمل: 61].

وقال سُبحانَه: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ [الرحمن: 19، 20].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ﴿54﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا ذَكَر تعالى قُدرتَه في منْعِ الماءِ مِن الاختِلاطِ؛ أتبَعَه القُدرةَ على خَلطِه؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه مُمتَنِعٌ؛ تقريرًا للفِعلِ بالاختيارِ، وإبطالًا للقَولِ بالطَّبائعِ

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا) أي: واللهُ وحْدَه هو الذي خلَقَ مِن المنِيِّ إنسانًا ذَكَرًا أو أُنثى. موسوعة التفسير

(فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا) أي: فجعَلَ اللهُ الإنسانَ ذا نَسَبٍ، وذا صِهرٍ. موسوعة التفسير

وقال ابن عثيمين: (مِن كمالِ قُدرةِ الله سُبحانه وتعالى أنْ خلَقَ من الماءِ بَشَرًا، وقسَّمه إلى قسمينِ؛ هما: النَّسبُ، والصِّهرُ، أي الزوجيَّةُ، وهذه أسبابُ الصِّلةِ بين الناس؛ إمَّا صلةٌ بالولادة: النَّسَبُ، أو بالنِّكاحِ: وهو المصاهَرةُ).

وقال ابن عثيمين: بيانُ خطأِ مَن يُسمِّي أقاربَ الزَّوجِ أو الزَّوجةِ «أنسابي» لأنَّه تزوَّجَ منهم، وهذا خطأٌ على اللُّغةِ؛ فإنَّ الأنسابَ هم القَرابةُ مِن قِبَلِ الأبِ أو مِن قِبَلِ الأمِّ، والأرحامَ كذلك هم القَرابةُ مِن قِبَلِ الأبِ أو مِن قِبَلِ الأمِّ، وأمَّا أقاربُ الزَّوجينِ فإنهم يُسمَّون أصهارًا لا أنسابًا؛ فقد جَعَلَ اللهُ تعالى الصِّلةَ بيْن البشَرِ بهذينِ الأمْرينِ: النَّسبِ، والصِّهرِ.

(وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) أي: ولم يَزَلْ رَبُّك -يا محمَّدُ- مُتَّصِفًا بكَمالِ القُدرةِ، ومِن ذلك قُدرتُه البالِغةُ على خَلقِ ما يشاءُ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: (وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا، أي: عظيمَ القُدرةِ، إذ أوجَد مِن هذا الماءِ خَلقًا عَظيمًا صاحِبَ عَقلٍ وتَفكيرٍ، فاختَصَّ باتِّصالِ أواصِرِ النَّسَبِ وأواصِرِ الصِّهرِ، وكان ذلك أصلَ نظامِ الاجتِماعِ البشريِّ لتكوينِ القبائِلِ والشعوبِ وتعاوُنِهم ممَّا جاء بهذه الحضارةِ المرتقيةِ مع العصورِ والأقطارِ).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ ﴿55﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: لَمَّا عدَّدَ النِّعمَ، وبيَّنَ كمالَ قُدرتِه؛ عَجَّب مِن المشرِكين في إشراكِهم به مَن لا يقدِرُ على نَفعٍ ولا ضرٍّ، أي: إنَّ اللهَ هو الذي خلَقَ ما ذكَرَه، ثمَّ هؤلاء لجَهلِهم يعبُدونَ مِن دونِه أمواتًا جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ) أي: ويَعبُدُ المشرِكون مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تَنفَعُهم بشَيءٍ، ولا تضُرُّهم أبدًا، ويتركونَ عِبادةَ اللهِ الذي خلَقَهم، وأنعَمَ عليهم، ويَملِكُ نَفعَهم وضُرَّهم. موسوعة التفسير

(وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا) أي: وكان الكافِرُ مُعينًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ اللهِ؛ يُشرِكُ به ويعصيه، ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: هذا مِن ألطَفِ خِطابِ القرآنِ وأشرفِ معانيه، وأنَّ المؤمنَ دائمًا مع اللهِ على نفْسِه وهواه وشَيطانِه وعدوِّ ربِّه، وهذا معنى كونِه مِن حزبِ اللهِ وجُندِه وأوليائِه؛ فهو معَ اللهِ على عدوِّه الداخلِ فيه والخارجِ عنه، يُحارِبُهم ويُعاديهم ويُغضِبُهم له سُبحانَه، كما يكونُ خَواصُّ المَلِكِ معه على حَربِ أعدائِه، والبعيدونَ منه فارِغونَ مِن ذلك، غيرُ مهتمِّينَ به، والكافِرُ معَ شيطانِه ونفْسِه وهواهُ على ربِّه. وعباراتُ السَّلَفِ على هذه تدورُ، فمعنى الآيةِ أنَّه يوالي عدُوَّه على معصيتِه والشِّركِ به، فيكونُ مع عدوِّه مُعينًا له على مَساخِطِ رَبِّه، فالمعيَّةُ الخاصَّةُ التي للمؤمِنِ مع ربِّه وإلهِه قد صارت لهذا الكافِرِ والفاجِرِ مع الشيطانِ ومع نفْسِه وهواهُ وقُربانِه؛ ولهذا صدَّر الآيةَ بقَولِه: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ [الفرقان: 55] ، وهذه العبادةُ هي الموالاةُ والمحبَّةُ والرِّضا بمعبوديهم، المتضَمِّنةُ لمعيَّتِهم الخاصَّةِ، فظاهَروا أعداءَ اللهِ على معاداتِه ومخالفتِه ومَساخِطِه، بخلافِ وليِّه سُبحانَه؛ فإنَّه معه على نفْسِه وشيطانِه وهواه، وهذا المعنى مِن كنوزِ القُرآنِ لِمَن فَهِمَه وعَقَلَه، وبالله التوفيقُ.

كما قال تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [النساء: 76].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿56﴾

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) أي: وما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَ مَن آمنَ بك واتَّبعَك بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا والآخرةِ، وتُنذِرَ مَن كفَرَ بك وكذَّبَك وعصاك بالشَّقاءِ والعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ. موسوعة التفسير

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿57﴾

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أرسلْتُك إليهم: أنا لا أسألُكم على تبليغِ رسالةِ اللهِ إليكم مالًا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ [الأنعام: 90].

وقال سُبحانه: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ [الطور: 40].

(إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا) أي: لكنْ مَن شاء مِنكم أن يتَّخِذَ طَريقًا يقرِّبُه إلى اللهِ، فليفعَلْ، ومِن ذلك أن يُنفِقَ مِن مالِه في سبيلِ اللهِ. موسوعة التفسير

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ ﴿58﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ الكُفَّارَ مُتظاهِرونَ على إيذائِه، فأمَرَه بألَّا يطلُبَ منهم أجرًا البتَّةَ- أمَرَه بأنْ يتوكَّلَ عليه في دفْعِ جَميعِ المضارِّ، وفي جَلْبِ جميعِ المنافعِ.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) أي: واعتَمِدْ -يا محمَّدُ- في دينِك ودُنياك على اللهِ الذي له الحياةُ الكامِلةُ الدَّائِمةُ التي لا موتَ معها أبدًا، وفوِّضْ أمورَك كُلَّها إليه وحْدَه لا إلى غيرِه، لا سيَّما في مُواجهةِ المشرِكين بالإنذارِ، وتبليغِهم رسالةَ الله إليهم. موسوعة التفسير

قال البقاعي: (الَّذِي لَا يَمُوتُ أي: فلا ضياعَ لِمَن تَوَكَّل عليه أصلًا، بل هو المتولِّي لمصالحِه في حياتِه وبعْدَ مماتِه، ولا تلتَفِتْ إلى ما سِواه بوجهٍ؛ فإنَّه هالِكٌ).

إشارةٌ إلى أنَّ المرءَ الكاملَ لا يَثِقُ إلَّا باللهِ؛ لأنَّ التوكُّلَ على الأحياءِ المعرَّضينَ للموتِ لا يَدومُ؛ لأنَّه إذا مات المتوكَّلُ عليه صار المتوكِّلُ ضائِعًا، أمَّا هو سُبحانه وتعالى فإنَّه حيٌّ لا يموتُ، فلا يَضيعُ المتوكِّلُ عليه البتَّةَ. الدرر السنية

إنَّ ممَّا يبعث التوكلَ في قلب العبد، معرفةَ الله بأسمائه وصفاته، فمَنْ كان بالله وصفاته أعلمَ، كان توكُّله عليه أكملَ.

ما رجا أحدٌ مخلوقًا وتوكَّل عليه إلا خاب ظنُّه فيه. ضعيف التوكل بعيد من الله، وقد يأوي إلى قوة لا تدوم؛ فيزول بزوالها، والموفق من آوى إلى ركن شديد لا تأخذه سنة ولا نوم. حصاد

فما أحوَجَ الأمةَ اليومَ، مع انتشار الأمراض العضوية، والنفسية والاجتماعية، ودواعي القلق والمخاوف، ما أحوَجَها إلى معرفة حقيقة التوكل على الله، وصدق الاعتماد عليه، في جَلْب المنفعة ودَفْع المضرة، في أمور الدنيا والآخرة، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، فالتوكُّل من أعظم العبادات، وأجلِّ القرباتِ، وهو أعلى مقامات التوحيد وأجَلِّها، وأشرف الطاعات وأعظمها. فمن اتخذ الله وكيلًا، اطمأنَّ قلبُه، وسكنت نفسُه، وقرَّت عينُه، وصَلَحَ بالُه؛ لعلمه أن الأمر كله بيد الله، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

كما قال تعالى: فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ [هود: 123].

وقال سُبحانه: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا [المزمل: 9].

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) أي: ونزِّهْ -يا محمَّدُ- ربَّك عن النَّقائِصِ والأندادِ والشُّرَكاءِ، مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، شاكرًا له على نِعَمِه. موسوعة التفسير

(وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا) أي: وحَسْبُك -يا محمَّدُ- ربُّك الخَبيرُ بذُنوبِ عبادِه، فلا يخفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيهم عليها يومَ القيامةِ؛ فليس عليك هُداهم، ولا حِفظُ أعمالِهم، فذلك كلُّه بيَدِ اللهِ وحْدَه. موسوعة التفسير

الخبير -سبحانه- هو العليم مطلق العلم فلا يخفى عليه شيء من مخلوقاته، فهو خبير بما تكنّه صدور الخلق، وما تُضمِره قلوبهم، خبير بأمورهم وما يجري في حياتهم، وبكل ما يعملونه من الطاعات والمعاصي،

والحسنات والسيئات، محيط بالظاهر والباطن، والسر والعلن، الخبير بنيات العباد، وبواعثها، وأهدافها، وأبعادها، وبمقاصدها، وخلفياتها، وجزئياتها، والخبير بأقوالهم وأفعالهم، فهو (الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام: 18].

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ ﴿59﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: لَمَّا أمَرَ سُبحانَه نبيَّه بالتوكُّلِ والتَّسبيحِ، وذكَرَ صفةَ الحياةِ الدَّائمةِ؛ ذَكَرَ ما دلَّ على القدرةِ التامَّةِ، وهو إيجادُ هذا العالَمِ، وأنَّه جديرٌ بأن يُخَصَّ بالتوكُّلِ، تبارَك وتعالى

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) أي: توكَّلْ على الحيِّ الذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في سِتَّةِ أيامٍ. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: (والسِّتَّةُ الأيامِ هي: الأحدُ، والاثنينُ، والثُّلاثاءُ، والأربِعاءُ، والخميسُ، والجُمُعةُ –وفيه اجتمَع الخَلْقُ كلُّه، وفيه خُلِق آدمُ عليه السلام. واختلَفوا في هذه الأيَّامِ: هل كلُّ يَومٍ منها كهذه الأيَّامِ كما هو المتبادرُ إلى الأذهانِ؟ أو كلُّ يَومٍ كألْفِ سَنةٍ كما نَصَّ على ذلك مجاهِدٌ، والإمامُ أحمدُ بنُ حَنبلٍ، ويُروى ذلك مِن روايةِ الضَّحَّاكِ عن ابنِ عبَّاسٍ؟ فأمَّا يومُ السَّبتِ فلمْ يقَعْ فيه خَلْقٌ؛ لأنَّه اليَومُ السابعُ، ومنه سُمِّيَ السبت، وهو القطعُ).

وقال ابنُ عثيمين عن القَولِ بأنَّ الأيامَ الستَّةَ هي مِن أيامِ الدُّنيا: (هذا هو القَولُ المشهورُ، وهو الراجِحُ، وأمَّا مَن قال: في ستةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الآخرةِ، وإنَّ اليومَ كألْفِ سَنةٍ، أو مَن قال: إنَّ المرادَ بالأيَّامِ مُطلقُ الزمَنِ، أي: في لحظاتٍ– فذلك أيضًا قولٌ مرجوحٌ؛ لأنَّ القرآنَ إنَّما يخاطِبُ النَّاسَ بما يَعرِفونَ، فالصَّحيحُ أنَّ المرادَ ستةُ أيامٍ مِن أيامِ الدُّنيا).

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ) أي: ثمَّ علا اللهُ الرَّحمنُ على عرشِه بعْدَ خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ عُلُوًّا يليقُ بجلالِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: (ثُمَّ اسْتَوَى بعْدَ ذلك عَلَى الْعَرْشِ الذي هو سَقفُ المخلوقاتِ وأعلاها، وأوسَعُها وأجمَلُها).

فاستوى على عرشِه باسمِ «الرَّحمنِ»؛ لأنَّ العرشَ محيطٌ بالمخلوقاتِ قد وَسِعَها، والرَّحمةَ محيطةٌ بالخَلقِ واسِعةٌ لهم، كما قال تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ [الأعراف: 156] ، فاستوَى على أوسَعِ المخلوقاتِ بأوسعِ الصِّفاتِ؛ فلذلك وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وفي الصَّحيحِ مِن حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لَمَّا قضَى اللهُ الخَلْقَ كتَب في كتابٍ فهو عندَه موضوعٌ على العرشِ: إنَّ رحمتي تغلِبُ غَضَبي)) ، وفي لفظٍ: ((فهو عندَه على العَرشِ)).الدرر السنية

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) أي: فاسألْ عن الرَّحمنِ عالِمًا يُخبِرُك عنه وعن عَظَمتِه، وعن خَلقِه وسُلطانِه، وأفعالِه وصفاتِ كَمالِه. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا يعني بذلك: نَفْسَه الكريمةَ؛ فهو الذي يعلَمُ أوصافَه وعَظَمَته وجَلالَه، وقد أخبَرَكم بذلك، وأبانَ لكم مِن عظمَتِه ما تَسعَدونَ به مِن معرفتِه، فعَرَفه العارفون وخضَعوا لجلالِه، واستكبَرَ عن عبادتِه الكافِرونَ واستنكَفوا عن ذلك).

قال ابن عثيمين: أنَّه لا تُطلَبُ معرفةُ اللهِ إلَّا مِن اللهِ؛ مِن الخبيرِ به، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى -على قولٍ في التفسيرِ-. وهذه الآيةُ تَشهَدُ لِمَا عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ مِن أنَّ أسماءَ اللهِ وصفاتِه توقيفيَّةٌ، لا يجوزُ لأحدٍ أن يُثبِتَ منها إلَّا ما أثبَتَه اللهُ ورسولُه، يعني: أنَّ وصْفَ اللهِ تعالى لا يكونُ إلَّا بحسَبِ ما عَلِمْناه منه، فلا يمكِنُ أن نَصِفَ اللهَ تعالى بما لم يَصِفْ به نفْسَه.

كما قال تعالى: وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [فاطر: 14].